من شؤون المسلمين والعالم

التجربة الكمالية في تركيا المسلمة

بالإكراه .. والضغوط .. وفي ظلّ حملات الاعتقال لعشرات الألوف ، وقوانين الحدّ من حرّيات سائر الاتجاهات، والمحاولات الفاشلة سلفاً لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الاقتصاد المنهار .. احتفلت القوى العسكرية الحاكمة في تركيا المسلمة بمرور مائة عام على مولد مصطفى كمال ..

أرادها علمانية ملحدة ، غربية صرفة ، قومية متعصّبة .. وسلك لذلك سبيل القتل والسجن والبطش والتعذيب وأعجب القوانين المستوردة والمبتكرة .. ورفض شعب تركيا المسلم العلمانية والإلحاد ، وطريق الغرب ، وطريق الشرق ، وحافظ على أخوّته الإسلاميّة مع سائر المسلمين فوق كلّ رابطة عنصرية .. ولكن أبقى له كمال وورثته : القتل والسجن والبطش والتعذيب وأعجب القوانين المفروضة بالقوة ، تنقل البلاد من كارثة إلى كارثة

إذا كانت التجارب التاريخية تقوّم بنتائجها على مدى عشرات السنين ، فما الذي يمكن أن تقوّم به التجربة الكمالية في تركيا المسلمة وقد مضى على الأخذ القسريّ بها أكثر من ستين عاما ؟ ..

يشيد أنصار هذه التجربة المريرة الفاشلة بـ (أتاتورك) أنّه وضع (أسس تركيا الغربية الحديثة) ، وخلّصها من رواسب (الخلافة والدين والتأخر) ، وحافظ على (استقلالها ووحدتها في القرن العشرين) .. فماذا يجد الباحث الموضوعيّ في تركيا المسلمة من هذا كلّه في هذه الأيام ؟ ..

– لقد انتقلت إلى تركيا معظم أمراض (المدنية الغربية الحديثة) ، ابتداء من أبشع صـــور الاســـتغلال الرأسمـــالي ونتائجه ، وانتهاء بأبشع ممارسات الدعارة والفساد أخطارها .. ولكن لم تجد تركيا المسلمة على مدى ستين عامـــاً طريقاً موصلة إلى تقدّم تقنيّ حقيقيّ ، ولا مستوى معيشة كريم ، ولا درجة معقولة من حرية الرأي والتعـــبير علـــى الأقلّ –بغض النظر عن زيفها في الغرب– ولا تثبيت جذور قوة عسكرية دفاعية رادعة ، اللهم إلاّ القواعد الأمريكية المدافعة عن المصالح الغربية فحسب .. فضلاً عن وقوف الغرب تجاه تركيا بزعمائها الراكضين وراء ذيله موقف العداء لصالح اليونان على الأقلّ ، ورفضه الاستجابة لتوسّلاتهم الذليلة أن تضمّ بلادهم إلى السوق الأوروبية المشتركة .. أو أن تمنح قروضاً مالية بمستوى قروضه وهباته السخيّة لـ (إسرائيل) على سبيل المثال

إنّ الحديث عن (أسس تركيا الكمالية الغربية الحديثة) أشبه بالهراء في أذن كلّ من لديه أدنى درجات المنطــق أو التجرّد أو الموضوعية .. حتى المفكّرون الغربيون يرون التجربة الكمالية متمثّلة في حاكم يجرّ البلاد جرّاً باتجاه الغــرب الرافض له ولبلاده ، ثمّ هو عاجز عن تحريك الأناضول من مكانها ، فجذور ارتباط شعب الأناضول المسلم بإخوتــه المسلمين غير قابلة للاقتلاع على يد أية قوة من قوى الأرض

– ويقولون إنّ التجربة الكمالية أرادت تخليص تركيا من (رواسب الخلافة والدين والتأخّر) .. وما نجح مصطفى كمال في تقويض عرش الخلافة العثمانية بدعم أعداء الإسلام .. أعداء تركيا .. إلاّ لأنّ تفسّخ العالم الإسلاميّ قــد سبق ذلك تحت تأثير الضربات الداخلية والخارجية ، وبقيت الشعوب المسلمة منذ ذلك الحين حتى الآن ، يحكمهــا الحاكم الأجنبيّ مباشرة أو الحكام المستبدّون الأتباع للقوى الأجنبية .. ورغم كلّ ما بذل (ويبذل) من جهود دوليــة عظمى للقضاء على (فكرة الخلافة) أصلاً ، فإنّ جميع الحاكمين ، وفي مقدّمتهم حكام تركيا يدركون إدراك اليقين أنّ أيّ استفتاء حرّ نزيه يستطلع إرادة المسلمين في أنحاء الأرض لا يمكن أن يسفر إلاّ عن تأييد (فكرة الخلافة) تنفيذاً لأمر الله عزَّ وجلّ ..

لقد قضى مصطفى كمال –وأمثاله– على الخلافة شكلاً ، و لم يقضوا عليها فكرا .. فالفكر الإسلاميّ نابع مــن أمر الله الذي لا يتبدّل ولا يتحوّل ، ومن وحدة المسلمين القائمة على مستوى الشعوب لا يحول دون ظهورها علــى مستوى التطبيق المعاصر إلاّ أنظمة الحكم القائمة على القوة من دون الشرعية ومن دون المنطق أيضا .. وبما يخــالف إرادة الشعوب كلّ المخالفة

ولئن نجحت التجربة الكمالية العلمانية الملحدة تجاه الإسلام في شيء ، فإنّما نجحت –كسواها مــن التجــارب القسرية في بلادنا– في إبعاد عامّة المسلمين حقبة من الزمن ، عن حقيقة دينهم ، قوّة محرّكة تثور بهم علــى واقعهــم الشاذّ ، ونظاماً شاملاً يرتقي بهم في كلّ عصر من العصور إلى مستوى الريادة والقيادة بين شــعوب الأرض .. مــا استمسكوا به وطبّقوه

إنّ استمرار التجربة الكمالية –وأمثالها– رغم الفشل بعد الفشل ، لا يعود لأسباب ذاتية من عندها وإنّما يعود إلى حقيقة عدم وصول النهضة الإسلاميّة الشعبية المعاصرة إلى المستوى المطلوب بعد ، لتحقيق الأهداف الأصــيلة رغــم القوى المعادية على كلّ صعيد وفي كلّ مكان

أمّا ربط الكماليين القضاء على رواسب (الدين) بالقضاء على رواسب (التأخرّ) ، فتلك هي الأكذوبة الكــبرى التي يرتكز عليها كلّ داع إلى الإلحاد في بلادنا المسلمة ، مستغلاً أوضاع التأخّر والتخلّف والفقر والجهل والحرمــان لإثارة الآمال المزيّفة والأوهام الباطلة والتي لا تسفر عبر عشرات السنين إلاّ عن مزيد من التأخّر والتخلّــف والفقــر والجهل والحرمان

لقد قوّض مصطفى كمال آخر شكل قائم لـ (الخلافة) ، وألغى تطبيق الإسلام في كلّ مجال وصلت يد البطش إليه، وأزال الحروف العربية والثقافة الإسلاميّة والفكر الدينيّ ، وحتى العمائم والأذان ؟ .. فأين هي مظاهر التقدّم المنشود بعد ستين عاماً كاملاً ؟ .. هل هي في البطالة أم الغلاء ؟ .. هل هي في الطبقية القاتلة أو افتقاد أبسط الموادّ الغذائيـــة والاستهلاكية الرئيسية ؟ .. أين هي مظاهر التقدّم المزعوم ؟ .. وإن لم تكن هذه النتيجة بعد ستين عاماً دليلاً علـــى فشل التجربة الكمالية ، فهل الدليل في اللجوء إلى قوّة السلاح وزنازين السجون وأعواد المشانق للمضيّ في التجربـــة ؟؟ ..

– أمّا أن يكون مصطفى كمال هو الذي حافظ على (استقلال تركيا ووحدتها) ، فذاك من أغرب ما يشيد بـــه أنصار هذه التجربة الفاشلة في الاحتفالات وبمناسبة ودون مناسبة .. ولا حاجة للحديث عن الأراضـــي والـــشعوب (التركية) تحت الاحتلال الروسيّ واليونانيّ والبلغاريّ .. فذاك ما أصبح أدعياء السياسة الواقعية يعتبرونه من (الأوهام وتطرّف الخيال) لدى السياسيّ الإسلاميّ .. إنّما السؤال عن استقلال تركيا المزعوم مع وجود بضع وعشرين قاعدة عسكرية أمريكية وألوف الخبراء العسكريين الأجانب وعجز حكامها –فيما لو صدقت نواياهم– عن التـــصرّف في القضايا التركية على مستوى المنطقة على الأقلّ –كما في بحر إيجه وجزيرة قبرص– إلاّ على حسب تـــأثير الـــضغوط الغربية عبر مختلف الأقنية العلنية والمستترة .. فهل هذا هو (الاستقلال) الذي حافظت عليه التجربة الكماليـــة ؟ .. أم أنّ (وحدة تركيا) هي هذه التي تتمثّل بالاقتتال الإرهابيّ وغير الإرهابيّ على مختلـــف المـــستويات ، وبـــين مختلـــف الاتجاهات ، من أقصى (اليمين) إلى أقصى (اليسار) ؟ إذا لم يكن هذا هو (التمزيق) بعينه لتركيا وشعبها فمـــا هـــو التمزيق إذن ؟ .. والاقتتال لا يقتصر على الجماعات المسلّحة السرّية التابعة للأحـــزاب أو الطوائـــف ، أو الـــتي لم يوجدها سوى الإجرام .. إنّما يمتدّ إلى ما عرفناه على المستوى (السياسي) بين الأحزاب .. وبين الأحزاب والجيش .. وبين أجنحة الحزب الواحد .. وبين مراكز القوى الرأسمالية المستغلّة .. اقتتال من كلّ نوع وصنف يشهد على حقيقة تلك (الوحدة) التي أوجدها مصطفى كمال على غير أساس (الإسلام) ..

لقد فشلت التجربة الكمالية في تركيا على كلّ صعيد إلاّ في مجال القدرة على استخدام العنـــف المـــدعوم مـــن الخارج ، للمحافظة على وجودها القسريّ بأيّ ثمن ..

وفشلت مثلها التجارب النابعة من نفس منبع الإلحاد والعلمانية واستيراد الأفكار الغربية والشرقية والتي تعاني منها بلادنا المسلمة منذ أكثر من ستين عاماً وتنتقل في ظلّها –مثل تركيا– من كارثة إلى كارثة

ولئن كان عزوف الغرب عن احتضان تركيا رغم ولاء حكّامها له يجد ألواناً من التفسير عند بعض المـــسلمين ، فإنّ التفسير الأصحّ بالدليل هو أنّ مفكّري الغرب وموجّهي سياسته يعلمون أنّ مستقبل تركيا مرتبط بالإسلام شاؤوا أم أبوا .. ولا يريدون لهذا البلد المسلم أن يبلغ من التقدّم التقنيّ الحقيقيّ ما قد يجعله مصدر قوّة دوليـــة للإســـلام في المستقبل .. وذاك ما يسري على كثير من بلداننا المسلمة الأخرى التي تعلّق حكامها بأذيال الغرب

ولئن نجحت ظروف الحرب العالمية الأولى وأقنعة التزييف والخداع الأولى التي لبسها مصطفى كمال وجنده ، في دفع كثير من أبناء تركيا آنذاك إلى الانحراف وراءه في طريق هذه التجربة المدمّرة ، فإنّها اليوم –كما يظهر لكلّ ذي عينين– لا تعتمد إلاّ على فريق محدود العدد يحتكر أسباب القوّة العسكرية والمالية والمصلحية الأنانية بين يديه فيفرض وجوده بالحديد والنار فحسب

أمّا الغالبية العظمى من الشعب المسلم في تركيا ، فلا يكاد يوجد شعب مسلم آخر أثبت مثلها عمـــق جـــذور الإسلام في قلوب أبنائه بالدليل والبرهان ، بتمسّكهم في تركيا بكلّ مظهر من مظاهر الإسلام يحفظ لهم رغم ضغوط ستين عاماً متواصلة ، بعض معالم شخصيتهم الإسلاميّة الأصيلة .. وإلى درجة يراها مسلمون آخرون (تعصّبا) !

ولهذا الشعب المسلم التقدير كلّ التقدير في كفاحه الطويل ، وعليه ينعقد الأمل كلّ الأمل في المستقبل المنشود

إنّ عودة الإسلام في تركيا إلى وضعه الطبيعيّ عبر الشعب نفسه أمر مؤكّد ، قد تؤخّر سرعتها السجون والمشانق ولكنّها لا تحول دونها في النهاية قطعا

والإسلام يعتمد على ما أوجده الله في القلوب من شعلة الإيمان الذاتية .. وعودته تعتمد من بعد ذلك على وجود الحركة الإسلاميّة الأصيلة الشعبية القادرة على جمع هذه القلوب في طريق واحدة للعمل ، وعلى إيقاد مشاعل النصر من نور الإيمان الكامن في أعماقها

﴿ ... **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف : ٢١]